

الفصل الثانی

صفی الدین الحلّی فی عصره

١ - مولده ونسبه

ولد صفی الدین - عبد العزیز بن سرايا الطائی - فی ربيع الأول عام ٦٧٧ هـ فی حلة بابل - أو الحلة الفيحاء - وهي حلة قريبة من الموصل . وقد عناها صفی الدین بقوله فی أبيات كتبها إلى أهله وهو بماردین ، فقال :

أَلَا أَبْلِغُ هُدَيْتَ سَمَاةَ قَوْمِي بِحِلَّةٍ بَابِلٍ عِنْدَ الْوُرُودِ^(١)
أَلَا لَا تَشْغَلُوا قَلْبًا لِعُمْدِي فَإِنِّي كُلَّ يَوْمٍ فِي مَزِيدِ
لِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِمِّي مُلُوكِ رُبُوعٍ عَيْبِدِهِمْ كَهْفِ الطَّرِيدِ^(٢)
فَمَنْ يَكُ نَازِلًا بِحِمِّي كَلْبِيبِ فَإِنِّي قَدْ نَزَلْتُ حِمِّي الْأَسْوَدِ

وقد تغنى صفی الدین بهذه الحلة وترنم بذكرها فقال :

مَنْ لَمْ تَرَ الْحِلَّةَ الْفِيحَاءَ مُقَلَّتَهُ فَإِنَّهُ فِي انْقِضَاءِ الْعَمْرِ مَغْبُونُ
أَرْضٍ بِهَا سَائِرُ الْأَهْوَاءِ قَدْ جُمِعَتْ كَمَا يُجْمَعُ فِيهَا الضَّبُّ وَالنُّونُ^(٣)
فَالْقَدْرُ طَافِحَةٌ وَالرِّيْحُ نَافِحَةٌ وَالْوُرُقُ صَادِحَةٌ وَالظَّلُّ مَوْضُونُ^(٤)
مَا شَأْنَهَا غَيْرُ سَعْيِ الْجَاهِلِينَ بِهَا كَأَنَّهَا جَنَّةٌ فِيهَا شَيَاطِينُ

ويفهم من شعره أن قبيلته - وهي قبيلة سننيس إحدى قبائل طي - عربية

(١) السامة بضم أوله القوم يخرجون للصيد والمراد السادة والشجعان .

(٢) الربوع جمع ربع وهو الدار . والكهف : الملجأ .

(٣) الضب : دابة كالخرباء - النون : الحوت . والمراد بتجمعهما تجمع الأضداد .

(٤) موضون : مضاعف كثير . والورق الحمام جمع ورقاء .

عريقة ، نمت كثيراً من السادات ، ويمت إليها أبوه وأمه على السواء . وكان لأسرة أمه عصبية بالحلة ممدودة الظل ، وأعمال مجيدة جلبت لها جاهاً وحسباً . وكسبتها سطوة ورياسة . فأحقدت بذلك بعض لداتها ممن ينفسون عليها الزعامة ، وينافسونها في الجاه والسلطان . فاشتعلت بذلك نار العداوة والبغضاء بين الفريقين وزادها تأججاً ما ورثه هؤلاء العرب عن أسلافهم القدماء من شجاعة وشهامة ، ومكابرة وصرامة ، ومن جاهلية ممقوتة عمياء لا تهدأ إلا بالدمار والأخذ بالنار .

وعاش صني الدين بين قومه هؤلاء وتأثر بمحادثهم وظروف حياتهم إلى حد كبير . ثم ألبأته الأحوال إلى التزوح عن بلده ، والاتصال بغير قومه . فاتصل بملوك وسادات في ربوع العالم الإسلامي ، كان لهم أثر كبير في نتاجه الأدبي . فزح إلى ملوك ماردين ، وملك حماة ، وزار بغداد ودمشق والقاهرة والحجاز وغيرها . وعاد أخيراً إلى بغداد ، فتوفي بها عام ٧٥٠ هـ^(١) .

٢ - ثقافته

لم تفصح كتب الأدب والتاريخ عن مبلغ ثقافة صني الدين . ولا صرحت بشيء عن دراساته ، سوى أن ابن حجر للعسقلاني روى « أن صني الدين تعانى صناعة الأدب ففهر في فنون الشعر كلها ، وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها »^(٢) . وروى مثل ذلك عن الصلاح الصفدى وغيره .

والناظر في ديوان صني الدين يراه قال عن نفسه في مقدمته ما نصه : « إني كنت قبل أن أشب عن الطوق . وأعلم ما دواعي الشوق . بهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً . واهتماً بسبك القريض . كارهاً للكسب بالتقريض » . وروى الصفدى أنه نظم الشعر وهو ابن سبع سنوات .

(١) روى أنه ولد عام ٥٦٧٨ هـ ، وأنه مات سنة ٧٥٢ هـ وقيل ٧٥٤ هـ ، وقيل ٧٥٥ هـ .

(٢) الدرر الكامنة .

ويفهم من هذا وذاك أنه مال منذ حداثة سنه إلى الأدب واللغة ، فعكف على أسفارهما اطلاقاً ودراسة وحفظاً . وأقبل على نظم الشعر هبة وفطرة وصناعة معاً ، في سن مبكرة . فأجاد وأعجب ، وأفاد وأطرب ، وبلغ الغاية من أشعاره ، والأهداف التي كان يهدف إليها منها ، حتى سار شعره مع الركبان ورددته الأمصار فسبقته بذلك شهرته إليها ، وهو بعد في طور الشباب .

ونظرة يسيرة إلى ديوانه ورسائله ومؤلفاته تفصح لك عن مقدار ما حظى به من الثقافة الأدبية ومبلغ ما قرأ من أشعار السابقين حتى تمثلها في نفسه واهتمها . فقد وعى من ألفاظ اللغة وصور تراكيبها مالا عهد لشعراء عصره بمثله . وبذلك صار بينهم نسيج وحده ، وأصبح مالكا لزمان اللغة والشعر يصرفهما أنى شاء وكيف شاء بلا مشقة ولا جهد ، حتى فيما يبدو منه متكلفاً متعسفاً فيه ، فإنه بذله دون تعب ولا نصب ، ذلك لأنه يتعمده تعمداً . وهو بذلك يبين لنا أنه وعى مذاهب الأدباء ومسالك الشعراء وطامن لنفسه من وعورتها ، فأصبح يجتازها على اختلافها ويسلك سهولها وحزونها عامداً دون أن يرضيه المسير . تبدو لك هذه الظاهرة في غريب شعره وقريبه ، وفي مبهمه وواضحه ، وفي قصيده المطول ، ومقطعه القصير . وفي القافية العصية والطبيعة .

وقد ملأ جعبته بألوان البديع وشتات المعاني والبيان ، فدرسها دراسة الفقيه الفاهم لا الشاعر الناظم . يدلك على ذلك شيثان : الأول بديعته التي نظمها في مدح الرسول عليه السلام وضمن أبياتها ألواناً من البديع بلغت مائة وواحداً وخمسين لوناً . والثاني شرحها ؛ فقد وضع لها شرحاً ميز فيه هذه الألوان البديعية أو البيانية وتحدث عنها حديث العالم . وقد روى أنه قرأ قبل نظم البديعية سبعين كتاباً^(١) ، وقبل شرحها مائة وأربعين كتاباً^(٢) .

(١) مقدمة البديعية .

(٢) الدرر الكامنة .

٣ - من حوادث أسرته

وقد كان لصنى الدين أعمام وأحوال ذوو مكانة في الحلة ومنهم الصدر « جلال الدين بن محاسن » وهو أكبر أحواله . وكان من ولاية النواحي . آلت إليه مرة ولاية ، فهناك صنى الدين بقصيدة طلية ، ومنهم « صنى الدين بن محاسن » أخوه . وبنو محاسن فرع من سبنس أيضاً . يقول صنى الدين :

فكَيْفَ وَلَمْ يُنْسَبْ زَعِيمٌ لِسَبْسِ إِلَى الْمَجْدِ إِلَّا كَانَ خَالِي أَوْ عَمِّي

وقد كانت هناك حقود وشحناء بين بنى محاسن ، وآل أبى الفضل^(١) بسبب النزاع على الرياسة والإمارة بالحلة . فلما انتشرت الفوضى في بلاد العراق على إثر الخلاف الناشب بين آل هولكو على ممالكهم في عهد السلطان غازان ، اضطرب الأمن في الحلة ووقع التراع بين قبائلها . وأدت الأحقاد بين بنى محاسن وآل أبى الفضل إلى أن يغدر آل أبى الفضل صنى الدين بن محاسن ويقتلوه غيلة وهو في مسجده . فرثاه صنى الدين رثاء حاراً . وثار لمقتله ثائرة قومه ، ونزع بهم عرق الوراثة إلى الانتقام والأخذ بالثأر . وكان في طليعتهم صنى الدين الحلى الذى كان متحمساً تحمساً شديداً . وذلك لمكانته من الشباب والشعر . فنظم القصائد الملتبهة يشعل بها النار ويستحث قومه على القتال والإيقاع بالعدو ، وأهاب بخاله « جلال الدين » أن ينتقم لأخيه أشد انتقام .

ويبدو أن الحرب التى كانت تقوم بين هذه القبائل ، حروب محلية قريبة الشبه بمعارك أهل الصعيد فى أيامنا . وقد وقع القتال بين قوم صنى الدين وبين أعدائهم ، ولبثت الحروب سجالاتاً حتى استطاع قومه أن يثخنوا فيهم

(١) روى ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٦ ما مؤداه : « أن آل فضل قوم رحالة بين الشام والجزيرة وبرىة نجد من أرض الحجاز . وأنهم اتصلوا ببعض حكام هذه المناطق ، فولوهم على بعض أحياء العرب ، وأقطعوهم على إصلاح السابلة ما بين الشام والعراق . فاستظهروا برياستهم على آل مرأه أعدائهم وغلبيهم على المشائى » . - فلعل آل فضل هؤلاء هم الذين نازعت سلالاتهم بنى محاسن بالحلة ونافسهم على الولايات .

ويتنقمو منهم . وكان صنئ الدين في طليعة المقاتلين فأبدى شجاعة وبسالة كانت من دواعي فخره . وذلك في واقعة « زوراء العراق » .

وقد سجل هذا النصر في شعره ، وكان مدداً لفخره بنفسه وقومه .

ولا شك أن صنئ الدين قد وجد في غنى أسرته ومجادتها ، وفي قوتها وعزيمتها ، وفي حوادثها وانتصاراتها ما كان له أكبر أثر في نفسه وفي أدبه ، وما غذى كبريائه وأشبع إيباءه ، وحفزه إلى التغنى بمجد قومه والفخر بهم وبنفسه ، ووصف حروبهم . وقد أتاحت له هذه النشأة أن يتعلم الفروسية فيركب الخيل ويقاتل بالسيف ويكابد مشاق الحرب ويشارك فيها قومه ، وأن يصبر على شدائد الحوادث ، وأن يجد في الملمات لذة وممتعة ، وأن يُحِبُّ إليه اجتياز الفلاة وسلوك القفر ما دام ذلك يوصله إلى المجد .

وقد أفسح له كل هذا في مجال الفخر والتغنى بما أثر الآباء والأجداد ، كما أفسح له في مجال الوصف والحديث عن السيوف والرماح والخيول وما يتصل بالحروب . كما ساقه إلى ضرب من الهجاء والسخرية هما أشبه بالهجاء السياسي .

وقد ربأت^(١) به نشأته تلك عن أن يتزلق إلى مهواة المديح ، والتردى إلى التكسب . ولذلك قال : « وكنت عاهدت نفسي ألا أمدح كريماً وإن جل ، ولا أهجو لثيماً وإن ذل . وذلك للتنزه عن التشبه بذوى السؤال ، والترفع عن التبع لمثالب الرجال . فكنت لا أنظم شعراً إلا فيما يوجب لي ذكراً أو يجلب لي شكراً »^(٢) . . .

لم يكن صنئ الدين — إذن — مداحاً متجولاً يعرض شعره على أبواب الملوك والعظماء لقاء عطاء — كما كان معاصره الجمال بن نباتة المصري — بل كان له من مجادة عنصره وإبائه نشأته وكرامة نفسه ، وحرصه على سلامة شعره ، ما يقف سداً قوياً دون هذا التكسب .

غير أننا سنرى أن الأيام كانت أقوى من إرادته ، وأقسى من كبريائه . فدفعته دعماً إلى الاحتراف بشعره ، والخروج عن دستورهِ .

(١) ربأ به : بعد به .

(٢) راجع مقدمة ديوانه .

٤ - ترحله ونزوحه من بلده

كان صنّى الدين كثير الترحال دائب الانتقال . وكان يتعاطى التجارة طلباً للرزق ويتجول بسببها ما بين حلب والشام ومصر وماردين وغيرها ويرجع إلى بلده (١) .

ويبدو أن أعداءه بالحلة أقلقوا راحته وأقضوا مضجعه وتهددوا حياته ، فاضطر إلى الفرار بنفسه ، واختار ماردين فاتصل بملوكها واستقر بها . ورغب إلى ملوك بني أرتق أن يعينوه في منصب ، ويكلوا إليه تدبيح الرسائل .

غير أنه خلال ذلك كان كدأبه كثير الأسفار دائم التجوال ، فتردد على بغداد والموصل ، ومصر بدمشق . وزار القاهرة ، وعم شطر الحجاز فحج وزار ، وعرج على حماة ، إلى غير ذلك من تنقلاته المتعددة .

ونعتقد أنه نرح من الحلة إلى ماردين في نحو عام (٢) ٧٠٠ هـ وهو في سن الثالثة والعشرين تقريباً . ويفهم هذا من ديباجة رسالته « التوئية » إذ قال مبيناً سبب إنشائها : « هذه رسالة أنشأتها بماردين سنة سبعمائة الهلالية . وبنيت عليها إحدى المقامات المنشأة . وذلك حين جرى بحضرة المولى السلطان الملك المنصور نجم الدين أبي الفتح غازى بن أرتق - طاب ثراه وقدس مشواه - ذكر أبيات للشيخ العلامة فريد دهره أبي القاسم بن على الحريرى - رحمه الله - التى أولها : « زينت زينب بقدر يقدر » وعجز المتأخرين عن هذه الصناعة نظماً ونثراً . وكنت أؤثر من قبل ، أن أعرفه طرفاً من صورة واقعتنا بالعراق التى أوجبت انتزاحى ، وأعرض بطلب خدمة ببلده مدة مقامى عندهم فى إنشاء بعض الرسائل المعجزة ، بحيث نبين الطبقة من غيرها . فعندها أنشأت هذه الرسالة فى تلك الصناعة . . . الخ .

(١) الدرر الكامنة .

(٢) روى يعقوبى أنه خرج من الحلة فى سنة ٧٠١ هـ . راجع طبعة ديوانه بالنجف .

هذا ويفهم من ديوانه ومن مناسبات قصائده أنه كان بماردين عام ٧٠١ هـ .
 ٧٠٢ هـ ، ٧٣٧ هـ ، ٧٤١ هـ . وأنه زار الموصل مرة عام ٧٠٢ هـ وحج وزار ،
 ومر في أثناء عودته من الحجاز سنة ٧٢٣ هـ بالقاهرة - وقيل عام ٧٢٦ هـ .
 ويبدو أنه مكث بها مدة . ويم شطر دمشق عام ٧٢٠ هـ ، ثم عام ٧٢٥ هـ
 بدعوة من كاتبها الكبير الشهاب محمود الحلبي . وأنه زار حماة قبيل عام ٧٣٢ هـ
 وهو العام الذي مات فيه ملكها المؤيد إسماعيل . وزارها مرة أخرى عام ٧٤٠ هـ .
 وأنه رحل إلى بغداد غير مرة . وزارها أخيراً فأت بها في أوائل عام ٧٥٠ هـ .
 وقيل مات بعد ذلك (١) .

٥ - اتصاله ببني أرتق

يبدو أن أعداء صني الدين بالحلة ، لكثرة هجائه لهم وتسفيهه إياهم وتأليهه
 قومه عليهم ، دأبوا على الكيد له ولقومه ومطاردته وترصده ، رغبة في اغتياله .
 فكفكروا عليه صفو حياته ، وخشى المغبة على نفسه ، وفزع من العاقبة . فنبأ به
 المقام ، وفضل الهجرة من بلده إلى بلد آخر ، كفاً للأذى وصوناً للنفس . وكان
 هذا بعد واقعة الزوراء .

وقد بينا أنه كان يتعاطى التجارة ويتجول بين البلدان بسببها . ولا بد أنه عرف
 ماردين وصادق بعض أهلها . أوسبقته أشعاره إليها ، فههدت له سبيل المودة
 والصدقة . هذا ، إلى قربها من بلده نسيباً . فاختر الرحيل إليها والاستقرار بها ،
 والعمل على الاتصال بملوكها ، وهم بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر .

فرحل إليها في نحو عام ٧٠٠ هـ . واتصل بالملك المنصور مستجيراً به شاكياً
 له مستدراً عطفه . طالباً منه أن يعينه في وظيفة لإنشاء بعض الرسائل ، فيجد في
 ذلك مرتزقاً ومسلماً . واعتمد صني الدين في ذلك على ما يعرفه عنه بنو أرتق من
 مقدرة على نظم الشعر .

(١) روى الصفدي أنه مات سنة ٧٥٢ - راجع مقدمة ديوانه طبعة النجف الأشرف . لعل
 ذلك في كتاب الصفدي الوافي بالوفيات .

وقد لقيه بنو أرتق لقاء كريماً حافلاً . فاستمعوا لحديثه وشكايته ، ورفعوا مكانته وقربوه إليهم ، وهبوا له من النعم الجزيلة والمنح الجليلة ، ما ألجج بذكورهم لسانه ، وأبهج بشكرهم بيانه ، ورضيت به نفسه .

وفي ذلك كله يقول صفي الدين : « ثم جرت بالعراق حروب ومحن ، وطالت خطوب ومحن ، أوجبت بعدى عن عريني ، وهجر أهلى وقرينى ، بعد أن تكمل لى من الأشعار ، ما سبقنى إلى الأمصار ، وحدت به الركبان فى الأسفار . فلما أحسنت إلى مساءات الزمان . وأرضانى سخط الحدثنان . فحط رحالى بفناء الملوك وبنى الملوك . كهف الغنى والصعلوك . فخر الملوك الأواخر والأوائل ، ملوك ديار بكر بن وائل . الأرتق راتقى فتق الدين . جابرى كسر الإسلام والمسلمين . لا زالت أيامهم باسمه الثغور ، ما سرت الريح الجارية . وجرت الروح السارية . ونظاير ورق الأشجار . وتشاجر ورق^(١) الأطيبار .

فَقَيْدَتْنِي عِنْدَهُمْ أَنْعَمُ هُنَّ قِيُودُ الْأَمَلِ السَّانِحِ
وَوَكَلْتُ فِكْرِي بِمَدْحِي لَهُمْ مَكَارِمُ الْمَنْصُورِ وَالصَّالِحِ^(٢)

لم يجد صفي الدين هنا بأساً ولا بُدأ ، من أن يخرج عن دستورهِ الذى رسمه لنفسه . فجنح إلى المديح يجزى به اليد البيضاء التى امتدت إليه ، والقلب الكريم الذى عطف عليه ، والصدر الرحيم الذى ضمه إليه . فكان مديحه لهم آية وفاء لا ملتمس عطاء ، وكان لسان شكر لا إيصال أجر .

على أن صفي الدين كان أحياناً يفرق بباب المنصور ما يهبه له ، حتى إن المنصور نفسه أنكر عليه ذلك ، فاعتذر صفي الدين إليه اعتذار شاعر . فقال :
فَوَاللَّهِ مَا فَرَّقْتُ مَا جُدْتُ لِي بِهِ عَلَى الصَّحْبِ عَنْ تِيهِ عَرَانِي أَوْ كِبَرِ^(٣)

(١) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .

(٢) راجع مقدمة ديوانه .

(٣) التيه : الكبر . والمراد بسبب التيه .

وَلِكِنِّي لَمَّا عَلِمْتُ بِأَنِّي أَقْصَرُ عَنْ آدَاءِ حَقِّكَ بِالشُّكْرِ
شَرِكْتُ جَمِيعَ الصَّخْبِ فِيهَا لَعَلَّهَا تُسَاعِدُ فِي شُكْرِ يَوْمٍ بِهِ عُذْرِي

وعاش صنى الدين زمناً طويلاً في كنف ملوك هذه الدولة ، وبخاصة المنصور وابنه الصالح . وكان ذا مكانة ملحوظة لديهم ، وذا رأى واضح في توجيه سياستهم وتحريضهم على الذود عن بلادهم وقتال أعدائهم والبطش بهم ، والنهوض لمواجهتهم ومناجزتهم .

هذا الاتجاه الجديدي الذي اتجهه صنى الدين في بلاط بنى أرتق ، هو في الواقع ، امتداد لاتجاهه القديم ، أيام كان يحرض خاله جلال الدين على البطش بأعداء قومه . وهما اتجاهان متسقان مع نفسية صنى الدين ونشأته . ولهذا كان في شعره يصدر ببراعة وروعة عن طبيعة حافلة وسجية أهلة ، وكأنه كان يحرض قومه أو خاله .

والملك الصالح الأرتقى تولى الملك بعد أخيه العادل عام ٧١٠ هـ . ولم يمكث العادل في ملكه إلا قليلاً . فلما تولى الصالح توثقت عرا المودة والألفة بينه وبين صنى الدين ، وأغدق عليه ، حتى سماه صنى الدين « ولى نعمته » . ونظم فيه جملة من قصائده هي لإحدى مجاميعه الحسان ، وتسمى « الصالحيات » . كما نظم من قبل في أبيه المنصور « المنصوريات » و « الأرتقيات » . وإن كان له فيها غير ذلك من المدائح .

واندمج صنى الدين في حاشية الصالح حتى غدا من جلالته وشهده محفله . وأمره الصالح مرة بلزوم مجلسه شهراً متوالى الأيام في فصل الربيع ، للشرب بقصوره بماردين . فنظم صنى الدين في ذلك جملة من المقطوعات الطريفة .

ولم يتصل بملوك هذه الدولة فحسب ، بل اتصل بأمرائها وآل بيت ملكها ومنهم ناصر الدين محمد بن الملك المنصور الذي كان صنى الدين يمدحه ويستهديه الشراب .

على هذا اللون من العيش أقام صنى الدين فى دولة بنى أرتق ، ناعم البال
قليل الشكاية ميسر الرزق ممدود الصحبة . ولهذا نظم فيهم أطيب شعره وأعذبه ،
وأرقه وأطربه ، وأكثره افتناناً ، وأوسعته تلاعباً .

ولا غرابة أن حسده أهل ديار بكر على منزلته تلك ، فقال يخاطب الملك
المنصور :

حَسَدَتْ أَهْيَلُ دِيَارِ بَكْرِ مَنْطِقِي فِيهَا كَمَا حَسَدَ الْهَزَارَ اللَّقَاقُ^(١)
أَعْيَتْ أَكْبَرَهُمْ أَصَاغِرُ لَفْظِهَا وَلَرُبَّمَا أَعْيَا الرَّخَاخَ الْبَيْدَقُ^(٢)

٦ - اتصاله بالناصر بن قلاوون

ومن اتصل بهم صنى الدين ، الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ،
وكان ذلك عام ٧٢٣ هـ كما ذكر فى ديوانه . وكان صنى الدين عائداً من تأدية
فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه السلام . فعرج على مصر فى أوبته فلقى بها
حفاوة بالغة وترحيباً عظيماً . وكان لا يزال بصنى الدين خوف من العودة إلى بلاده .
وقد نوهنا بأن عصر الناصر بن قلاوون كان أزهى فترات العصر المملوكى
بالرجال وأملأها بالعلماء وأحفلها بالأدباء والشعراء والمنشئين .

وقد رحب علاء الدين بن الأثير - وهو الكاتب المنشىء الكبير وكاتب سر
الناصر - بمقدم صنى الدين وقدمه إلى السلطان الناصر .

وأشار ابن الأثير على صنى الدين بأن يجمع ديوان شعره ، وكان شعره مشتبهاً
لم يُعْن أحد بلمته . وفى ذلك يقول صنى الدين : « فلما من الله علىّ بقضاء حجة
الإسلام وزيارة قبر النبي عليه السلام ، قذف بى خوف بلادى إلى الديار
المصرية . وأهلت لأمثول فى الحضرة الشريفة الملكية الناصرية . وشملنى من

(١) الهزار : طائر قيل إنه التندليب ، جميل الصوت . والمقلق والقلق : طائر كالأوز طويل

الأرجل ممدود المنقار ولعله (البشروش) .

(٢) الرخ والبيدق من قطع الشطرنج .

الإنعام ما فاجأني ابتداء . ولم أملك له خبراً . ألزمني المروءة بمكافأة تلك الحقوق ورأيت كفرانها كالعقوق . وأن تكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين . فنظمت في معاليه ما طاب لفظه ومعانيه . وظهرت آيات القوى فيه ، من تمكن سبكه وقوافيه . فلما صادفت سائلي فيه قبولا . وهبت ريح سعداها قبولا ، أشار رئيس وزرائه وزعيم كتاب إنشائه عن إشارته العالية أن أجمع له جزءاً من جد شعري وهزله ، ورقيق لفظي وجزله . وأن أبوبه أبين تبويب وأرتبه أحسن ترتيب . ليكون ديواناً للمحاضرة ، ومجموعاً للمذاكرة . فأجبت بالسمع والطاعة . واستحضرت ما حضرني حسب الاستطاعة . » .

ونستنبط من عبارته أن الخوف من العودة إلى بلاده كان لا يزال يطارده ، مع أن سنه بلغت إذ ذاك نحواً من ست وأربعين سنة . وأنه مدح الملك الناصر جزاء له على أنعمه لا استدراكاً لجداه^(١) ولا طلباً لنداه . وبهذا يحافظ صني الدين على مبدئه . ! وأنه جمع في ديوانه هذا ما حضره من شعره حسب الاستطاعة فليس ما جمعه فيه - إذن - كل شعره . ولو جمع كله لكان للأدب والتاريخ منه غم عظيم .

ونلاحظ من عبارته أيضاً مقدار ما لقيه من حفاوة الناصر وكاتب سره ابن الأثير . على أن أثر ابن الأثير فيه لم يقتصر على أنه دفعه إلى جمع ديوان شعره ، بل تعداه إلى نواح من النشاط أخرى . فكثيراً ما اقترح عليه النظم فنظم ، وهزه للقرى فجاد وأجاد .

ومن ذلك أنه ذكر له مرة بيتين للشاب الظريف - أحد شعراء مصر المتوفى عام ٦٨٨ هـ - وفيهما جناس تام لطيف لا يتبهاً مثله لغيره . والجناس فيهما تام بين الضرب والعروض . - آخر شطري كل بيت - وهما :

أَحْسَنُ كُلِّ النَّاسِ وَجْهًا وَفَمَا إِنَّ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِالْحُسْنِ فَمَنْ
حَكَى الْغَزَالَ مُقَاتَةً وَلَفْتَةً مَنْ ذَا رَأَاهُ مُقْبِلًا وَلَا آفِتًا

فنظم صفي الدين على هذا الطراز أرجوزة في واحد وثلاثين بيتاً ، جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه جناساً تاماً ومدح بها الناصر بن قلاوون ، قال :

كَمْ قَدْ أَفْضْنَا مِنْ دُمُوعٍ وَدِمَا عَلَى رُسُومٍ لِلدِّيَارِ وَدِمَنِ (١)
وَكَمْ قَضَيْنَا لِلْبِكَاءِ مَنْسَكًا لَمَّا تَذَكَّرْنَا بِهِنَّ مَنْ سَكَنَ (٢)

ومنها في مدح الناصر :

يَا مَلِكًا فَاقَ الْمَأُوكَ وَرَعَا إِنَّ شَانَ أَهْلِ الْمُلْكِ طِيْشٌ وَرَعَنَ (٣)
أَكْسَبْتَنِي بِالْقُرْبِ مَجْدًا وَعَلًا فَصَعْتُ فِيكَ الْمَدْحَ سِرًّا وَعَلَنَ (٤)
وأشده علاء الدين أبياتاً لأحد المغاربة كان معجباً بها ، - ولعل ذلك لغرابة قافيتها - ومنها :

كَاتَمَ الدَّمْعَ هَوَاهُ فَوَشَى وَسَقَاهُ الْحَبُّ كَأْسًا فَاَنْتَشَى

وسأله أن ينظم أبياتاً على منهاجها . فاستمهله يومين ، ثم نظم قصيدة من أربعين بيتاً في مدح علاء الدين ، من البحر والروي ، قدمها بالغزل ، ومنها :

كَرَّرِ اللُّؤْمَ عَلَيْهِ إِنْ تَشَأْ فَهُوَ صَبٌّ بِحَمِيَاهُ أَنْتَشَى (٥)
هَزَهُ بِلِ أَرْهَ ذِكْرُ الْحِمَى فَتَشَى طَرَبًا بِلِ رَعَشَا (٦)
كَادَ أَنْ يَقْضَى فَجَدَدْتُ لَهُ ذِكْرَ سُكَّانِ الْحِمَى فَاَنْتَعَشَا (٧)

ومنها في مدح علاء الدين :

- (١) اللمن : جمع دمنة وهي آثار الدار وبقاياها .
- (٢) المنسك : أصله العبادة وكل حق لله تعالى . وهذا حق البكاء أو الديار .
- (٣) الورع : التقوى والخوف من الله . والرعن : الحلق والبطش .
- (٤) العلا : العلاء وهو الرفعة . قصره ونونه لضرورة الشعر .
- (٥) الحميا : سورة الكأس وشذبتها أو إسكارها أو أخذها بالرأس . انتشى : سكر .
- (٦) أزه : أشعله ، يقال أزه النار ، إذا أوقدها .
- (٧) أن يقضى : أن يموت .

كَاتِبُ السَّرِّ الَّذِي فِي عَصْرِهِ سَرُّ دَسْتِ الْمَلِكِ يَوْمًا مَا فَشَا^(١)
 يَقْظُ الْأَرَاءُ مَسْلُوبُ الْكِرَى مُسْتَجِيشُ الْعِزْمِ مَتَّعُوبُ الْوُشَا^(٢)
 فَالْأَمَانِي مِنْ عَطَاهُ تَرْتَجِي وَالْمَنَايَا مِنْ سَطَاهُ تُخْتَشَى^(٣)

ولصنى الدين في ديوانه ثلاث قصائد مدح بها الناصر بن قلاوون وتسمى «الناصريات» منها النونية التي أشرنا إليها . ومنها قصيدة بائية عارض بها بائية للمتنبي ، والثالثة نونية أيضاً نظمها بمناسبة عيد كسر الخليج .

٧ - اتصاله بالمؤيد صاحب حماة ، وابنه

وكان صنى الدين يتردد على حماة ، في زمان ملكها المؤيد إسماعيل . وقد أشرنا إلى ما كان يتحلى به هذا الرجل من همة وشهامة ، ومن علم وأدب . فلقى صنى الدين من لدنه حفاوة بالغة ولقاء كريماً . ولا ندرى بالضبط متى اتصل بالمؤيد ، ولا متى رحل إليه ، أو تردد على عاصمته . غير أن ذلك ، بلا ريب ، كان قبل عام ٧٣٢ هـ ، العام الذي توفي فيه المؤيد .

قيل إن المؤيد أهدى إليه وبراً في الإهداء ، وأعطاه فأجزل في العطاء . ورتب له مرتباً يكفيه طول إقامته .

وفي ديوان صنى الدين قصيدة نونية وموشحتان وعدة مقطوعات في مدح الملك المؤيد وشكره .

واتصل صنى الدين بعد وفاة المؤيد بابنه الملك الأفضل عقب اعتلائه عرش أبيه واختيار الملك الناصر له « نائباً » على حماة بدلا منه . فهنأه بقصيدة نونية ذكر أحبابه في صدرها ، ورثى المؤيد في أعقابها وذلك عام ٧٣٣ هـ . وله في

(١) الدست : مرتبة جلوس الملك والمراد بجملة . ومنه سمي كتاب الدست لأنهم يجلدون مع السلطان .

(٢) الوشا : الوشاة أى النمامون . حذف التاء للشعر .

(٣) السطا : كلمة شاعت حينذاك بمعنى السطوة وليس اشتقاقها عربياً وقد تكون جمع سطوة مثل سطوة وخطا .

مدحه وتهنئته وشكره قصائد وموشحات ، ومقطعات أخرى .

ومن الحق علينا أن نذكر أن جمال الدين بن نباتة المصري — معاصر صفي الدين ونده في ميدان الشعر وزميله في ود المؤيد وإكرامه ، والأفضل واهتمامه — كان أكثر شعراً من صفي الدين ، في مدح هذين الملكين ، وكان أشرق ديباجه وأمتع أداء وأكرم لساناً وأبدع تصويراً . وهو صاحب القصيدة البديعة التي هنا بها الملك الأفضل باعترائه عرش أبيه ، وعزاه بفقده . فجمع بذلك بين فنيّ تهنئة والتعزية في معظم أبياتها بلباقة نادرة . وهي التي قال في مطلعها :

هَنَا مَحَا ذَاكَ الْعَزَاءَ الْمُقَدَّمَا فَمَا عُيَسَ الْمَحْزُونُ حَتَّى تَبَسَّ مَا

ويؤخذ صفي الدين بمطلع قصيدته في تهنئة الأفضل . والمطلع — حقاً — في الغزل وذكر الحب ، ولكن إذا علمنا أن عرش حماة لم يكن وراثياً ، وأن حماة كانت إحدى نيابات الدولة المصرية ، وأن وصول الأفضل إلى عرشها مكان أبيه كان رهناً بمشيئة الناصر بن قلاوون ملك مصر ، وأنه انتظر حتى جاءه أمر الناصر بن قلاوون ملك مصر بتعيينه ، وجعله « ملكاً » كما كان أبوه ، وأنه كان يتوجس خيفة من أن يجرمه الناصر هذا الملك . — أقول إذا لاحظنا ذلك شعرنا بشيء من النبوءة في مطلع صفي الدين .

لم يقتصر أثر اتصال صفي الدين بملكي حماة على المدح والثناء والتعزية ، بل كثيراً ما كان المؤيد — مثلاً — يحرك شاعرية صفي الدين ، ويشير مقدرته . إلى النظم في مناسبات متعددة .

ومن ذلك ما روى من أن الملك المؤيد نفسه اخترع وزناً شعرياً جديداً ، واقترح على صفي الدين أن ينظم منه موشحاً امتحاناً له وكشفاً عن كفايته . فنظم صفي الدين منه موشحة طويلة غزلية سنشير إليها .

٨ — صداقاته

لا بدع ، وقد شهدنا بعض نواحي النشاط في حياة صفي الدين ، أن رأيناه كثير الإخوان وافر الخلان . فإن من كان مثله كثير الترحال على الكعب في

الأدب نظمه ونثره ، حتى فتح له أدبه أبواب الملوك وهياً له في مجالسهم وحواشيهم مكاناً مرموقاً ، كان جديراً بأن يسعى إليه الأصدقاء ، وأن تعقد الأيام بينه وبين عليّة جيله أو أصر المحبة والإخاء ، سواء منهم أولو الفضل والعلم ، وأهل الأدب والشعر ، فضلاً عن أرباب السلطان والجاه .

ولم تقصّ علينا كتب التاريخ أنباء صداقاته كاملة صريحة واضحة رتيبة . ولكن نظرة إلى ديوان شعره توحى إليك بما أشرنا إليه من كثرة إخوانه ووفرة خلانته . وقد كان لهذه الصداقات أثرها الكبير في شحذ قريحته واستدرار أسلته ، وثروة أدبه . وفيما نظمه من ضروب الإخوانيات كالشوق والعتاب والاعتذار والاستعطاف والملاغزة والاستهداء والشكر والتماح والاستدعاء والمماجنة ، وغير ذلك ، دليل صادق على ما نقول .

ومن انعقدت بينه وبينهم الصحبة من أكابر أدياء عصره : جمال الدين بن نباتة المصرى الشاعر الكبير . وفتح الدين بن سيد الناس الأديب المؤرخ . وأبو حيان الأندلسى الفقيه النحوى . وصلاح الدين الصفدى الأديب المؤرخ . وشهاب الدين محمود الحلبي المنشئ البليغ . وفخر الدين هبة الله كاتب السر بجلب . وغيرهم .

وفي عصر صنّى الدين كانت العلاقات الإخوانية ذات أثر بعيد المدى في النتاج الأدبى ، اتخذتها النزعة الأدبية والفنية الشاعرة وسيلة من وسائلها إلى الحياة والينع والازدهار .

وكان جمال الدين بن نباتة قد أرسل إلى بعض أصدقائه رسائل ، فلم يجد صنّى الدين من بينها رسالة له ، فبعث إلى ابن نباتة في ذلك يعاتبه ويستمنحه الرد . وقال في المطلع يذكر أجباءه وفراقهم :

مَنْ لَصَبَ أَدْنَى الْبِعَادِ وَفَاةً إِذْ عَدَاهُ وَصَلَّ الْحَبِيبَ وَفَاةً^(١)

(١) الوفاة في الشطر الأول: الموت . وفاته في الشطر الثاني : تركه وعدها وتجاوزته . بينهما جناس تام .

فَاتَهُ مِنْ لَمَّا الْأَجْبَةِ عَيْشٌ كَانَ يَحْتَشِي قَبْلَ الْوَفَاةِ فَوَاتَهُ
كَانَ ثَبْتًا قَبْلَ التَّفَرُّقِ لَكِنْ زَعَرَعَتْ رَوْعَةَ الْفِرَاقِ ثَبَاتَهُ (١)

وبعد أن مدحه وأثنى عليه وعلى شعره ، قال :

وَرَسُولٍ مِنْكُمْ تَعَجَّبْتُ مِنْهُ حِينَ حَانَتْ مِنِّي إِلَيْهِ التَّفَاتَةُ
جَاءَ يُهْدِي إِلَى الصَّحَابِ طُرُوسًا لَيْسَ لِلْعَبْدِ بَيْنَهُنَّ حُتَاتَهُ (٢)
فَتَأَمَّلْتُ فِي يَدَيْهِ خُطْبُوطًا أَذْكَرَنِي مِنْ رَبِّهَا أَوْقَاتَهُ (٣)
لَوْ بَعَثْتُمْ لِلْعَبْدِ فِيهَا سَحَابًا لِأَعَادَتْ بَعْدَ الْمَمَاتِ حَيَاتَهُ (٤)
فَتَفَضَّلْ بِالْأَنْسِ وَاهِدٍ إِلَى عِبْدِكَ مِنْ مَسْكَكَ الزَّيْ كِي فُتَاتَهُ (٥)
أَلَمْكَ مِنْ وَافِرِ الْعُلُومِ نِصَابُ فَاجْعَلِ الرَّدَّ لِلْجَوَابِ زَكَاتَهُ (٦)

فرد عليه ابن نباتة ردًا شعريًا رقيقًا من البحر والروي ، بادله فيه ثناء بثناء ، ومودة بمودة ، ويتعلل من عدم مكاتبته . قال :

مَا لِيْطْبِي الْجَمِيَّ إِلَيْهِ التَّفَاتَةَ بَعْدَ مَا كَدَّرَ الْمَشِيبُ حَيَاتَهُ
لَهْجٌ بِالْهُوَى وَإِنْ نَفَرَتْ أَيْدِي اللَّيَالِي غَزَالَهُ وَمَهَانَهُ (٧)
كَلَّمَا قِيلَ قَدْ سَلَا عَنْ فِتْنَةٍ عَادَهُ الْحُبُّ فَاسْتَجِدَّ فِتْنَاتَهُ .. النَّخ

ويشهد الذوق برفقة ابن نباتة وعذوبة رده وحلاوة عبارته ، وفوقه في هذا على صنى الدين . على أنهما فحلا عصرهما بغير منازع . وعلى هذا الغرار مضت صداقات صنى الدين .

(١) الثبت : الثابت .

(٢) الطروس : جمع طرس بكر الطاء ، وهو الصحيفة - والحئات : الدقاق - بضم الدال -

المنحات المتفتت .

(٣) كان الجمال بن نباتة حسن الحظ . فتذكر صنى الدين بخطوطه في رسائله أوقاته الماضية .

(٤) السحابة : الناحية والجانب . وسحا الطين قشره وجرفه . والمراد هنا قليل من السطور أو الكلمات .

(٥) فتنات المسك : ما تفتت منه وأهد مسهلة الهمزة .

(٦) نصاب الزكاة : حدها الذي تجب عند اكتماله .

(٧) الهجج : المفري بالشئ الثاير عليه . والمهابة : البقرة الوحشية ، ويريد بها الحسنة العين .